

طبع الالتزام في الجاهلية والإسلام

أستاذ مشارك - قسم الأدب والنقد
والبلاغة - كلية اللغة العربية
جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

د. صديق عبد الرحمن إبراهيم موسى

المستخلص:

تناول البحث طبع الالتزام في الجاهلية والإسلام. أتت أهمية البحث بالنظر إلى ضرورة الاعتبار والالتزام بطابع المنهاج المثالي الذي جاءت به الرسل. هدف البحث إلى بيان أهمية الالتزام الأدبي للانتقال من التنظير إلى التطبيق الواقعي لتعاليم الإسلام، مما يؤكد على التمايز الذي زاد من إرساء دعائم منهجية الإسلام في رعايته للأخلاق. انتهج البحث المنهج الاستقرائي والوصفي التحليلي. خلص البحث في خاتمته إلى عدة نتائج منها؛ يمثل الطبع القيم والمثل الروحية وهي قيم أدبية صالحة لكل زمان ومكان، أعطت الخلافة الأولى القراءة الصحيحة لطابع الأدب الإسلامي، في جوانب الالتزام والمثالية والواقعية، لقد باءت آداب وأذنانب العصر الجاهلي بالفشل أمام تحديات القرآن الكريم، التوجهات القرآنية والتعاليم النبوية، أكثر القيم ثباتاً أمام التيارات الحضارية والمتغيرات الثقافية. وخلص البحث إلى عدد من التوصيات منها؛ الالتزام بالسيرة النبوية مرجعاً للالتزام والمثالية والواقعية. معرفة المثاليات والقيم الروحية والأدبية لدين الإسلام، للتغلب على المثاليات غير الإسلامية.

كلمات مفتاحية: الالتزام، القيم والمثل الروحية، القرآن الكريم والسنة، الجاهلية، الأدب.

Compliance Etiquette before and after

Dr. Sedieq Abdul Rahman Ibrahim Musa/ Co-professor

Abstract

The research dealt with the nature of commitment in ignorance and Islam. The importance of the research came in view of the necessity of taking into account and adhering to the nature of the ideal curriculum that the messengers came with. The aim of the research is to demonstrate the importance of moral commitment to move from theorizing to the realistic application of the teachings of Islam, which confirms the differentiation that has further laid the foundations of Islam's methodology in its care of morals. The research adopted the inductive and descriptive analytical method. The research concluded in its conclusion to several results, including; The character represents spiritual values and ideals, and they are literary values that are valid for every time and place. The first caliphate gave the correct reading of the character of Islamic literature, in the aspects of commitment, idealism and realism. The manners and sinners of the pre-Islamic era failed in the face of the challenges of the Holy Qur'an, Quranic trends and prophetic teachings, the most stable values in the face of currents. Civilization and cultural variables. The research concluded with a number of recommendations, including; Commitment to the Prophet's biography is a reference to commitment, idealism and realism. Knowing the ideals and the spiritual and moral values of the religion of Islam, in order to overcome the non-Islamic ideals.

Keywords: commitment, spiritual values and ideals, the Holy Quran and Sunnah, pre-Islamic era, literature.

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد، لقد جاء الإسلام بالعلوم النظرية في الجوانب الشرعية المتعددة، لتكون المنطلق المثالي للحياة البشرية، مع الالتزام بها حساً وعقلاً وتحولها إلى أرض الواقع تطبيقاً وتطبيعاً، وكان أول من قام بذلك العمل الشرعي رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد نزول الوحي عليه متناسقاً مع روح الإسلام نظرياً وعملياً.

لقد أصبح الالتزام بالأحكام الشرعية واجباً على الأمة الإسلامية وفي هذا الجانب كانت المفارقات الأدبية، لأن التطبيق على شقين فالأول على المستوي الفردي بتربية النفس، والثاني

بالتطبيع علي المستوي الجماعي التكافلي وهو محط الأنظار إذ به يتم الحفاظ علي مقاصد الشريعة التي بها تستقيم الحياة، وتصفو الأخلاق ويستقيم السلوك يصبح تعبيرا صادقا عن طبائع الإنسان الأدبية، وتكون مهیئة للإبداع والابتكار، تحت مظلة الأمن والسلام لتتحول المواقف التطبيقية للأدب إلي صور إنشائية وتعبيرية من النثر والنظم، لتعطي ثمرة جديدة ذات طابع نفعي متعددي، في لون محدد من ألوان الأدب من قصة قصيرة أو طويلة أو رواية أو مقال أو مثل أو رسالة أو حكمة أو خطابة، وبذلك تكتمل دائرة الأدب من التطبيق إلى التطبيع لدى الفرد والمجتمع، بين الماضي والحاضر. ونحن في هذا البحث بين يدي أول تجربة بشرية بعد رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، في جانب الالتزام التطبيقي والتطبيعي للتشريع الرباني الذي هو جوهر الأدب، وسط أمواج عاتية من التيارات العvisية من أذنان العصر الجاهلي، وذلك ما بين تحديات القرآن الكريم، ومعجزات سنة النبي محمد، وبين رواسب آداب وأخلاق من بقايا الجاهلية، في حقبة لا تعرف التصنيف الأدبي الذي قام لاحقا علي أنواع متعددة من الأجناس الأدبية، ولقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة ونتائج وزيلته بالمصادر والمراجع، واتبعت فيه منهج الإستقراء والوصف والتحليل.

أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث بالنظر إلي ضرورة الاعتبار والالتزام بطابع المنهاج المثالي الذي جاءت به الرسل، ولذا يجب أن يتبعه الناس من بعدهم ويلتزمون به في واقع حياتهم التي لا تُبرأ من خلل أو زلل كما هي الفطرة المثالية عند البشر، مع ضرورة استشفاف مظاهر الفنون الأدبية التي استندت بدورها لاحقا علي مجمل المرتكزات الأدبية والأخلاقية المنظورة والمقرورة فعلا والمقرورة نثرا أو نظما، لتلقيح تلك الألوان من المجالات الأدبية وتحويلها إلي إنتاج فني ينتقل إلى دائرة النقد الموضوعي في إطار عجلة المعرفة الشاملة.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلي بيان أهمية الإلتزام الأدبي للإنتقال من التنظير إلي التطبيق الواقعي لتعاليم الإسلام، مما يؤكد علي التمايز الذي زاد من إرساء دعائم منهجية الإسلام في رعايته للأخلاق.

منهج البحث:

منهج البحث هو الاستقراء والوصف والتحليل.

أسئلة البحث:

يركز البحث في الإجابة عن الأسئلة التالية:

لماذا لا يعبر الأدب عن روح الإسلام نظريا فقط دون التطبيق والتطبيع؟.

أين موقع المثالية والواقعية بإزاء نظرية تطبيق الإلتزام الأدبي؟.

(3) هل التطبيق العملي والالتزام النظري في الأدب هما وجهان لعملة واحدة؟.

طبع الإلتزام في الأدب الجاهلي

الطبع في اللغة:

قال ابن منظور في لسان العرب: الطبع والطبيعة الخليفة والسجية التي جبل عليها الإنسان، والطباع كالطبيعة مؤنثة، ويجمع طبع الإنسان طباعاً، وهو ما طبع عليه من طباع الإنسان في مأكله ومشربه وسهولة أخلاقه وحزنتها وعسرهما ويسرها وشدته ورخاوته وبخله وسخائه، والطبع المثل يقال اضربه على طبع هذا وعلى غراره وصيغته وهديته أي على قدره، وطبعه الله على الأمر يطبعه طبعاً فطره، وطبع الله الخلق على الطبائع التي خلقها فأنشأهم عليها، وفي الحديث (كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب) أي يخلق عليها، و الطباع ما ركب في الإنسان من جميع الأخلاق التي لا يكاد يزاولها من الخير والشر، وطبعه تطبيعاً فتطبع.⁽¹⁾ يتبين لنا من كلام ابن منظور أن الطبع اسم جامع لمعاني سلوك الإنسان الحسنة والسيئة ولا شك أن هذا المعنى لغوي بحث ينصرف على جميع الفرضيات التي يمكن أن يتصورها الإنسان لطالما كانت حدود ذلك الطبع تتصل بالخير والشر، وفي إضافة لفظ الطبع إلى الالتزام يتبين تعريف الالتزام على أي طبع يكون، جاء في أساس البلاغة: هو مطبوع على الكرم، وقد طبع على الأخلاق المحمودة، وهو كريم الطبع والطبيعة والطباع والطبائع، وهو متطبع بكذا وهذا كلام عليه طبائع الفصاحة⁽²⁾. لقد ازداد معنى الطبع وضوحاً مع ما جاء به الزمخشري بعد أن أوردها معرفة بالإضافة، فجاء التعريف إيجاباً لأن المعاني المضاف إليها جميعها معاني حميدة.

الالتزام في اللغة:

قال ابن منظور: اللزوم معروف، والفعل لزم يلزم، والفاعل لازم، والمفعول به ملزوم، لزم الشيء يلزمه لزماً ولزوماً ولازمه ملازمة ولزماً والتزمه وألزمه إياه فالتزمه، ورجل لزمة يلزم الشيء فلا يفارقه، وقوله عز وجل (فقد كذبتكم فسوف يكون لزاماً) أي عذاباً لازماً لكم⁽³⁾. جاء في تاج العروس: لازمه ملازمة ولزاماً بالكسر، والتزمه وألزمه إياه فالتزمه أي إذا لزم شيئاً لاي فارقه وهو الملازم جداً، وأنشد الجوهري لأبي ذؤيب:

فلم ير غير عادية لزاماً كما يتفجر الحوض اللقيف

والعادية: القوم يعدون على أرجلهم أي فجأتهم لزام كأنهم لزموه لاي فارقون ما هم فيه.⁽⁴⁾

مفهوم الالتزام في الأدب:

إن مفهوم الالتزام عند الأدباء أو معنى الالتزام عند الأدباء: يعني أن يأخذ الأديب بمنهج معين في أعماله الأدبية كأن يبديع في فن القصة فيلتزمها، أو أن يبديع في فن الشعر فيلتزمه، أو في المقالة أو الخطابة أو في أي جنس آخر من أجناس الأدب، ولا يعني ذلك ألا يفارق الأديب هذا الفن الذي يجيده إلي غيره، وإنما ينطلق في عطائه وفق طريقة سليمة محافظة لا تزي فيها عوجاً ولا أمثاً، ولا تجد فيها مدخلاً لناقد، ذلك لأن الأديب وطَّن نفسه علي أن لا يقول إلا الحق، وعلي أن لا تنزع عواطفه إلا إلي ما هو حق وصدق وخير.⁽⁵⁾

هذا هو مفهوم الالتزام عند الأدباء عامة، وعلينا أن نعي أن هذا المفهوم من المفاهيم الحديثة للأدب ولا يوجد مثل هذا التصنيف في صدر الإسلام، وهو موضوع البحث ومن هنا تأتي

الأهمية القصوى للوقوف علي المتغيرات النوعية في هذا المضمار، ومن خلال هذا التعريف لصاحب بدائع الأدب الإسلامي ندرك بوضوح أن الأديب تعاهد نفسه بألا يقول إلا الحق ولا يترك العنان مرسلًا لميول نفسه ولا ركون عواطفه بل يتحرى الصدق ويراعيه قولًا وفعلاً وصمتًا، إيماءً وإشارة، ومما أشار إليه صاحب البدائع أن الأديب يلتزم جنسًا أدبيا من مجالات الأدب المتعددة فيتقنه أكثر من غيره من الأجناس الأخرى، وهو في ذلك لم يلزم أو يحمل بأية حال إلي مفارقة ومجانبة بقية الفروع الأدبية المتجنسة من الأدب ومنتفعة عنه، بل يعول علي تلك الأجناس التي يجعلها قاعدة لمنطلق أفكاره لتعينه علي بلورة فكرته وإحكام نظرتة وإبرام مادته التي هي ثمرة تلك المجالات والفروع الأدبية مجتمعة، وهذا الفكر يماثل التخصص الدقيق الذي تسير عليه المؤسسات التعليمية من الجامعات والمعاهد المتخصصة والجمعيات العلمية في جوانب العلوم الإنسانية عامة، ولا ينفرد الأدب العربي أو الإسلامي بتلك الخاصة دون الآداب الأخرى، ولذلك نجد الجامعات تشتمل علي الكليات وهي تمثل المجالات الأدبية، ونجد الكليات تشتمل علي الأقسام وهي تمثل الأجناس الأدبية المشتتة علي العلوم الإنسانية، وبناء علي ذلك نجد كليات الآداب تشتمل علي أقسام الجغرافيا والتاريخ وعلم النفس والوثائق والمكتبات واللغة العربية والدراسات الإسلامية واللغة الإنجليزية والفرنسية وغيرها من اللغات. فإذا سلب الأدباء الضوء علي تلك العلوم من المنظور الشرعي فيكون ذلك كله أدبا إسلاميا، ولذا نجد أن الأدب الإسلامي أكبر من الأدب العربي، ومن هذا المنظور يعبر الأديب العربي بلغته العربية عن مفاهيم اكتسبها عبر لغات أخرى غير العربية، ومن هنا تأتي شمولية الأدب الإسلامي وهذا ما نسميه الطابع الأدبي الذي تتضح معه نظرية تكامل الشكل والموضوع لمفهوم الأدب الإسلامي مما يضفي عليه صفة العالمية، لأن كل أديب يتكلم بلغته وقد تكون لدي بيئته عادات وتقاليده فهنا عنده طبع أي عادة أو سجية، ولكن عندما يدخلها الأديب عبر الترجمة أو ينقلها من محيطه الأدبي إلي بيئة أدبية أخرى بأي أسلوب معرفي فعندما تنسجم مع توجهات الإسلام وتتفق مع الآداب العامة الحسنة فهذا نسميه تطبيع.

طبع الالتزام في الجاهلية:

عرف الجاهليون الالتزام في الأدب منذ نشأة القصيدة فكان الشعر الجاهلي تميز بشيئين هما أساس الالتزام الأدبي الذي بني عليه المتأخرون تعريف الالتزام الحديث، ولذلك كان العرب سباقون إلي هذا النوع من النمط الأدبي، والشيثان هما: أولا: أبحر الشعر العربي الستة عشر التي كان لزاما علي أي شاعر الالتزام بهما في شعره، ثانيًا: موضوعات الشعر التي يجب علي الشاعر أن يطرقها في قصيدته أو يتناول بعضها، ومن هنا تعارفت العرب علي اختيار أجمل أشعار العرب وهي التي كانت تتوفر فيها الموضوعات المعنية وأسموها بالمعلقات، ومن هذا المنطلق فإن المعلقات العربية هي خير نموذج للالتزام بأبحرها وموضوعاتها، ونحن في هذا الصدد نقف علي تلك الضوابط الأدبية التي خلدت أشعار العرب في أجمل وأرقى شكلها ومضمونها (المعلقات)، وتتناول بالذكر تلك الموضوعات المتناثرة في بطون المعلقات ونقف علي موضوع واحد أو موضوعين من كل معلقة.

معلقة لبديد بن ربيعة العامري:

الفخر بالمجد والنسب والحسب والمروءة والكرم والآباء والإباء وإجارة الضعيف، والقناعة ورجاحة العقل وحفظ حق الجار، والسيادة والريادة، فانظر الي هذا الشاعر العملاق ماذا قال في معلقته الشهيرة على وزن البحر الكامل:

منا لزاز عظيمة جشامها	إننا إذا التقت المجامع لم يزل
ومغذمر لحقوقها هضامها	ومقسم يعطي العشيرة حقها
سمح كسوب رغائب غنامها	فضلا وذو كرم يعين على الندى
ولكل قوم سنة وإمامها	من معشر سنت لهم آباؤهم
إذ لا تميل مع الهوى أحلامها	لا يطبعون ولا يبور فعالهم
فسمما إليه كهلها وغلماها	فبنوا لنا بيتا رفيعا سمكه
قسم الخلائق بيننا علامها	فاقنع بما قسم المليك فإنما
أوفى بأعظم حطنا قسامها	وإذا الأمانة قسمت في معشر
وهم فوارسها وهم حكامها	فهم السعاة إذا العشيرة أفضعت
والمرملات إذا تناول عامها	وهم ربيع للمجاور فيهم
أو أن يميل مع العدو لثامها ⁽⁶⁾	وهم العشيرة أن يبطئ حاسد

معلقة عمرو بن كلثوم:

وهذا عمرو بن كلثوم من أصحاب المعلقات يتناول موضوعا مما كانت تباهي به العرب ألا وهو شرب الخمر فنجده ضمنه في معلقته وقدم لها وصفا دقيقا في المجلس الذي تدار فيه الكأس بكل أدب، وكيف أنها تلعب بألباب العقلاء ويذل البخيل فيها المال سواء بسواء مع أهل الكرم، وكيف كانت الخمر من الملذات التي لا تفارق الشاعر ولو كان في ترحاله عبر المدن وما يبذله فيها من مال لأصحابه، ثم ربط موضوع الخمر بالمنايا والأجال التي هي قدر محتوم وكأن الخمر من واجبات الحياة عند الشاعر، وعمرو بن كلثوم هو أول شاعر جاهلي يفتتح قصيدته بالخمر ويرجع ذلك لكثرة التنصر في قبيلته، ولقد تطرق الشاعر بالهجاء لعمرو بن هند، وهو ملك من ملوك العرب وتعرض لذكر أمه صراحة وهذا كلام لا يليق برجل أديب في مكانة عمرو بن كلثوم، لأن هذا من شين السمعة في حق العوام فكيف يكون الأمر إذا كان المخاطب ملكا، والأبيات التالية من معلقته تبين ذلك انظر إلى قوله من البحر الوافر:

ولا تبقي خمرو الأندرينا
إذا ما الماء خالطها سخينا
إذا ما ذاقها حتى يلينا
أمرت عليه لماله فيها مهينا
وكان الكأس مجراها اليمينا
وأخرى في دمشق وقاصرنا
من الفتیان خلت به جنونا
حتى تغالوها وقالوا قد رونا
مقدرة لنا ومقدرنا
تُطِيعُ بِنَا الوُشَاةَ وَتَزْدَرِينَا
متى كُنَّا لَأُمِّكَ مَقْتَوِينَا⁽⁷⁾

ألا هبي بصحنك فاصبحينا
مشعشة كأن الحص فيها
تجور بذى اللبانة عن هواه
ترى اللحز الشحيح إذا
صددت الكأس عنا أم عمرو
وكأس قد شربت ببعلبك
إذا صمدت حمياها أريبا
فما برحت مجال الشرب
وإنا سوف تدركنا المنايا
بأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرُو بَنَ هِنْدٍ
تُهَدِّدُ، وتُوَعِدُنَا، رُوَيْدًا

معلقة طرفة بن العبد:

تناول الشاعر في معلقته بعض الحكم التي يؤمن بها العرب كما تعودوا من الحياة ومنها نقصان الأيام وأيلولة الإنسان إلى الموت الذي لا يخطئ احدا مهما كانت منزلته بين الناس ملكا كان أو مملوكا، وكأن المنية زمام يجبر الجميع خلفه، وإن الأيام كفيلة بذلك، فهي حبلى بالأخبار ولا شك في وصولها فيجب الاعتبار بتلك المواعظ من دروس الأيام، ولقد نعى الشاعر الحياة بذكره الموت وقرب الأجل المحتوم فهو يطوِّف في أفق الرثاء أحد موضوعات الشعر العربي فانظر لقول طرفة من البحر الطويل:

وما تنقص الأيام والدهر ينفد
كالطول المرخي وثنياه باليد
ومن يك في حبل المنية ينقد
وإن كان في الدنيا عزيزا بمقعد
ويأتيك بالأخبار من لم تزود
بتاتا ولم تضرب له وقت موعد
فما اسطعت من معروفها فتزود⁽⁸⁾

أرى الدهر كنزا ناقصا كل ليلة
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى
إذا شاء يوما قاده بزمامه
أرى الموت لا يرعى على ذي جلاله
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأبناء من لم تبع له
لعمرك ما الأيام إلا معارة

معلقة عنتر بن شداد العبسي:

لقد أوردنا عدة موضوعات من شعر عنتر تناولها في أبيات معدودة، فلقد ذكر الأطلال والديار وخلوها من المحبوب بعد أن أصبحت مهطلا للأمطار ومرتعا للذباب، ثم تناول كرامته وعفته وتحمله الجوع في انتظار المطعم الحلال، وتجاوزه عن صغار الأمور إلا إذا ظلم ظلما يחדش كرامته فوقتها يذيق المعتدي مرارة ظلمه، ثم ذكر عنتر الخمر وشربها واصفا نفسه بالانضباط وبقاء عقله حيث يحافظ على عرضه الوافر ولا سبيل لانتهاكه من تعاطيه الخمر، إذ أن ذلك لا ينقص من مكانته شيئا، فانظر إلى شعره من البحر الكامل:

لعب الربيع بربعها المتوسم
يجري عليها الماء لم يتصرم
غردا كفعل الشارب المترنم
سهل مخالفتي إذا لم أظلم
مر مذاقته كطعم العلقم
حتى أنال به لذيذ المطعم
ركد الهواجر بالمشوف المعلم
مالي وعرضي وافر لم يكلم⁽⁹⁾

ولقد مررت بدار عبلة بعدما
سحا وتسكابا فكل عشية
خلا الذباب بها فليس ببارح
أثنى علي بما علمت فإنني
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل
ولقد أبيت على الطوى وأظله
ولقد شربت من المدامة بعدما
فإذا شربت فإنني مستهلك

معلقة امرئ القيس:

في هذه الأبيات لقد مزج الشاعر بين موضوعين وهما الكرم عندما ذبح مطيته للعداري وفي آن واحد يتغزل بالمحوبة كغيره من شعراء العرب من أصحاب المعلقات، وذكر النسيب والتشبيب بالنساء وهو واحد من موضوعات الشعر العربي، وجاءت معلقة امرئ على البحر الطويل إذ يقول:

فَبَا عَجَبًا مِنْ رَحْلِهَا الْمُتَحَمَّلِ
وَيَا عَجَبًا لِلجَارِرِ الْمُتَبَدَّلِ
فَقَالَتْ: لَكَ الْوَيَالُتُ إِنَّكَ مُرْجَلِي
عَقَرْتُ بَعِيرِي، يَا امْرَأَ الْقَيْسِ، فَأَنْزِلِ⁽¹⁰⁾

وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَدَارَى مَطِيَّتِي
وَيَا عَجَبًا مِنْ حَلْهَا بَعْدَ رَحْلِهَا!
وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخِذْرَ، خِذْرَ عُنْيَةِ
قَوْلٍ، وَقَدْ مَالَ الْعَيْطُ بِنَا مَعًا:

معلقة زهير بن أبي سلمى:

نظم الشاعر في الأطلال وظعن المحبوبة وارتحالها، وهما موضوعان يذكرهما الشاعر الجاهلي عادة في مفتتح قصيدته، وهذا ما فعله زهير إذ يقول من البحر الطويل:

بحومانة الدراج فالمتثلّم
مراجع وشم في نواشر معصم
فلأياً عرفت الدار بعد توهم
فهن ووادي الرس كاليد للفم
وضعن عصي الحاضر المتخيم
أنيق لعين الناظر المتوسم⁽¹¹⁾

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم
ديار لها بالرقمتين كأنها
وقفت بها من بعد عشرين حجة
بكرن بكوراً واستحرن بسحرة
فلما وردن الماء زرقا جمامه
وفيهن ملهى للطيف ومنظر

قال الشاعر أبياتا في المدح والسلم هي من أعظم ما قيل في الجاهلية، ومدحه لوحة تسير على قدميها ولا يحتاج إلى شرح، يقول زهير:

رجال بنوه من قريش وجرحهم
على كل حال من سحيل ومبرم
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
بمال ومعروف من القول نسلم
بعيدين فيها من عقوق ومأثم
ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم
وما هو عنها بالحديث المرجم⁽¹²⁾

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله
ميئاً لنعم السيدان وجدتما
تداركتما عبساً وذبيان بعدما
وقد قلتما: إن ندرك السلم واسعاً
فأصبحتما منها على خير موطن
عظيمين في عليا معد هديتما
وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم

معلقة النابغة الذبياني:

هذا الشاعر الذبياني من فحول شعراء العرب وله معلقة سارت بها الركبان وهذا جانب منها تناول فيها أحوال النجوم وهطول الأمطار ليلاً ببرقها وريحها وظلامها وأثواب السحب وأستاره تغطي السماء ويلوح البرق من خلالها في منظر جميل يأسر النفس وكانت العرب ترتاح له لأنه يبشر بالخير الكثير والكأ الوفير، ومن جانب الخير إذا ناح الحمام في تلك المروج في ظلال الأمطار تذكر الشاعر محبوبته أم عمار وأملت به الذكريات لأنه كشأن العشاق في بادية الجزيرة العربية، ولا يغيب عنه منظر المحبوبة وخيالها لا يبارح ذهنه وهي تظعن من دار إلى دار تجتاب الأرض وركابها الميمون تكتنفه الأمطار التي تسري ليلاً تحت هيجان الرياح حتي يسفر الصبح عن تلك الليلة المطيرة فيكشف الضياء عن لوحة جميلة من لوحات الطبيعة التي تغنى بها الشاعر، على لحن البحر البسيط، فأنظر ماذا قال النابغة الذبياني:

إلى المغيَّبِ: تَنَبَّثَ نَظْرَةً حَارِ
أَمْ وَجْهُ نُعْمٍ بَدَأَ لِي، أَمْ سَنَا نَارِ
فَلَاخٍ مِنْ بَيْنِ أُنُوبٍ وَأَسْتَارِ
وإن تَعَرَّبْتُ عَنْهَا أَمْ عَمَارِ
ماضٍ على الهَوْلِ، هَادٍ غَيْرِ مِخْيَارِ
تَشَدَّرْتُ بِبَعِيدِ الْفَتْرِ حَطَّارِ
يَخَاصِبُ ذَاتَ إِشْعَانٍ وَإِمْطَارِ
مَعَ الظَّلَامِ، إِلَيْهَا وَإِبْلُ سَارِ
وَأَسْفَرَ الصَّبْحُ عَنْهُ أَيَّ إِسْفَارِ⁽¹³⁾

أَقُولُ وَالنَّجْمُ قَدْ مَالَتْ أَوَاخِرُهُ
أَلْمَحَةُ مِنْ سَنَا بَرْقٍ رَأَى بَصْرِي،
بَلْ وَجْهُ نُعْمٍ بَدَأَ، وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرُ،
إِذَا تَعَنَّى الْحَمَامُ الْوُزُقُ هَيَّجَنِي،
تَجْتَابُ أَرْضاً إِلَى أَرْضٍ بِذِي زَجَلِ
إِذَا الرِّكَابُ وَنَتْ عَنْهَا رَكَابُهَا،
بَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ شَهْبَاءُ تَسْفَعُهُ
وَبَاتَ ضَيْفًا لَأَرْطَاةٍ، وَأَلْجَأَهُ،
حتى إِذَا مَا انْجَلَّتْ ظُلُمَاءُ لَيْلَتِهِ

لقد تناولنا في هذا المبحث ضوابط القصيدة العربية وحدودها المتعارف عليها تطبيقياً بين العرب ورأينا أن الالتزام بأبهر الشعر والموضوعات الشعرية هو الأساس الذي قام عليه الإلتزام الأدبي في الشعر الجاهلي، ولذلك وجدنا أصحاب المعلقات قد اشتهروا في اختيار بحر واحد، ولقد جاءت معلقات كل من إمرىء القيس، وزهير، وطرفة بن العبد، على وزن البحر الطويل لسعة تفاعلاته وتمكنها من استيعاب المعاني الكثيرة، بينما اشتهرت معلقتا لبند وعنترة في وزن البحر الكامل لسعة تفاعلاته أيضاً، بينما كانت معلقة النابغة على وزن البحر البسيط، ومعلقة عمرو بن كلثوم على وزن البحر الوافر.

أما موضوعات الشعر في هذه المعلقات فقد شملت جل الموضوعات التقليدية للشعر العربي الجاهلي، وتمثلت في ذكر الأطلال، والنسيب وهو التشبب بأحوال النساء، وذكر المحبوبة وطمعها وترحالها، وذكر المطر والأنواء، والفخر، والمدح، والهجاء، والرثاء، وبذلك يثبت لدينا بما لا يدع مجالاً للشك بأن الإلتزام الذي عرف حديثاً بين أوساط الأدباء قد كان موجوداً في العصر الجاهلي ومتأصلاً بين الشعراء وهم قادة الأدب في ذلك الوقت.

طبع الالتزام في أدب الإسلام:

مفهوم الالتزام في الشرع:

أما مفهوم الالتزام عند المسلمين نابع من تمسك الفرد بالكتاب الكريم والسنة النبوية، وعليه يجب أن يكون الالتزام بجميع ما جاء به الإسلام من تعاليم، وفي شرح العمدة: من لم يلتزم بجميع الإسلام فإنه يُقاتل، وأيضاً فإن الالتزام قد لا يحصل لقوله تعالى: (فإن تابوا) فإن التائب من الكفر لا يكون تائباً حتى يقر بجميع ما جاء به الرسول ويلتزمه.⁽¹⁴⁾

ولذا أصبح لزاماً علي المرء أن يلتزم في كلامه الصدق وما كان موافقاً للكتاب والسنة، وأن يعي حقيقة ما يقول، ولذا أورد صاحب منهاج السنة قوله: الماهية التي يعينها المتكلم بلفظه، دلالة لفظه عليها دلالة مطابقة، ودلالته على ما دخل فيها دلالة تضمن، ودلالته على ما يلزمها وهو خارج عنها دلالة الالتزام.⁽¹⁵⁾

إن ما أوردناه من أقوال العلماء والباحثين يركز على الالتزام وبيّن أهميته، ونعرض هنا لما قاله صاحب التفسير الكبير عن الالتزام لنختم به هذه التعريفات التي لا تحصي في هذا المجال، يقول صاحب التفسير الكبير: اعلم أن المؤمن إذا آمن بالله فقد التزم شرائع الإسلام والإيمان وحينئذ يجب عليه أمران أحدهما أن يصبر على ذلك الالتزام وأن لا يرجع عنه وأن لا ينقضه بعد ثبوته والثاني أن يأتي بكل ما هو من شرائع الإسلام ولوازمه⁽¹⁶⁾.

الالتزام هو التطبيق العملي والقولي للموجهات الإسلامية من الأحكام الشرعية ومعاملاتها التي أقر بها الأدباء والكتاب، والالتزام هو المجال العملي لتطبيق المثالية والواقعية، إذ أن الواقعية تقوم على المثالية والالتزام يقوم عليهما معاً، إذا فالالتزام إتباع لما جاء به الحق جل وعلا في التنزيل من الوحي القرآني، ولذا قال الله تعالى: (اتبعوا ما أنزل الله) أي (التمموا) بالقبول والعمل قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، ألفينا وجدنا، وقال الشاعر:

فألفيته غير مستعتب ولا ذاك الله إلا قليلاً

وغاية الفساد في الالتزام أن يقولوا نتبع آباءنا ولو كانوا لا يعقلون فقروا على التزامهم هذا

إذ هي حال آبائهم.⁽¹⁷⁾

أما قول الشاعر آنف الذكر فأوله:

أتاني فقال اتخذي خليلا	أريت أمرا كنت لم أبله
كذوب الحديث سروقا بخيلا	وألفيته حين جربته
عتابا رفيقا وقولا جميلا	فذكرته ثم عاتبته
ولا ذاكـر الله إلا قليلا	فألفيته غير مستعتب
وإتباع ذلك صرما طويلا ⁽¹⁸⁾	أست حقيقا بتوديعه

أنظر إلي الشاعر كيف تمثل بالشعر أمر الالتزام بالمعني والمضمون، وإن كان هذا الشاعر قد تمثل بالمعني تلميحا فنجد من الشعراء قد جاء بلفظ الالتزام تصریحا فانظر إلى ما قاله سبط بن التعاويذي:

الضرورة بل بحكم الالتزام	وأجتنب الذبائح لا بحكم
موافقة لكم شرب المدام	وأترك طائعا من غير عذر
بكم ما بين باطية وجام ⁽¹⁹⁾	إلى أن تجمع الأيام شملي

لقد ذكر الشاعر والأديب حكم الالتزام في الأبيات آنفة الذكر، والالتزام هو خلاصة الأدب والأخلاق لأن صاحبه وملتمزه يبين مدي قربه وبعده من الشرع الإسلامي المتمثل في الكتاب والسنة بعد أن يؤمن به ويقر به إقرارا تاما. وفي كتاب توحيد الألوهية: إن الإيمان مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة، كما أن لفظ الإقرار مأخوذ من قر يقر وهو قريب من آمن يأمن، لكن الصادق يطمئن إلى خبره والكاذب بخلاف ذلك، كما يقال الصدق طمأنينة والكذب ريبة فالؤمن دخل في الأمن كما أن المقر دخل في الإقرار ولفظ الإقرار يتضمن الالتزام.⁽²⁰⁾

إن ما ذكرناه في بيان الالتزام يكفي لكي يفهم القارئ ما نوردته في هذا البحث المتواضع من تطبيقات في هذا الجانب، ولما كانت المثالية والواقعية والالتزام يتعلمها الناس من مدرسة نبينا محمد، فلقد وقعت متغيرات أحدثتها البشرية من بعد رسول الله في جانب الإلتزام الذي كان شموليا واسعا فأصبح خاصاً ضيقا، والإلتزام الخاص هنا أصل من فرع، فالأصل قديم مليئ بالطباع النبيلة، والفرع محدث مشحون بالأخطاء الذليلة، ومن هنا جاء الشد والجذب بين الماضي والحاضر، ولا نجد ماضيا للبشرية أبلغ من سيرة الصحابة في صورها الأدبية التي أصبحت لوحة ناطقة بفنون الأدب والإنسانية فهي الصورة الملهمة التي انبرى لهاام خدام الأدب وصناع المجد فأخرجوها بشتى صور الإبداع ومجالات العلوم وأجناس الأدب الإسلامي، فرغبوا منها بناء أدبيا هو بيت الطوائف المحمودة الذي تأوي إليه البشرية جمعاء يربط بينها أدب الإسلام على اختلاف اللغات والعرقيات مشاربها الثقافية والعلمية المختلفة مع استصحاب البرهان الموضوعي لكل نظرية، وفي المعجم الوسيط: النظرية قضية تثبت ببرهان، وفي الفلسفة طائفة من الآراء تفسر بها بعض الوقائع العلمية أو الفنية، ونظرية المعرفة هي البحث في المشكلات القائمة على العلاقة بين الشخص والموضوع أو بين العارف والمعروف وفي وسائل المعرفة فطرية أو مكتسبة.⁽²¹⁾ والمطلوب لنظرية الأدب الإسلامي أن تقوم علي حكم شرعي مصدق بالدليل من الكتاب والسنة لتكون

منهاجا ملموسا في الحياة العقلية والمادية: لاستكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة⁽²²⁾. ولما كانت هذه هي الروح النظرية المطلوبة في الأدب الإسلامي وما ينطوي علي ذلك من إصلاح للنفس البشرية: لهذا خصصوا اسم الفقه بالعلوم النظرية⁽²³⁾. ويمثل الشعر مصدرا للالتزام لما أضفاه الخليفة الأول أبو بكر الصديق لذلك المعنى الأدبي، وأنطبق عليه من معاني الشعر ما أورده صاحب العقود الدرية:

وإذا تكلم لا يراجع هيبة	وسكينة وكلامه إبرام
وتراه يصمت لا لعي دائما	إلا لعلهم يقتنى ويرام
أللقى عليه مهابة من ربه	فخطابه الإجلال والإكرام
وأما من بدع الضلال عوائد	لا يستطيع لدفعها الصمصام
أس الفضائل والذي لا تهدي	لفنونه وعلومه الأوهام
وأنا له رب السموات العلا	في العلم سبقا ما إليه مرام
إن المنزه ربنا سبحانه	يقضي بما تأتي به الأحكام ⁽²⁴⁾

لقد قيلت هذه الأبيات في أبي بكر الصديق ولا تحتاج هذه اللوحة إلى تفسير فهي صورة فنية ناطقة تستهوي كل أديب طبعه الزوق السليم، فقد قدم الصديق أمودجا للالتزام، استهوي الشعراء والأدباء فهذا خفاف السلمي يقول في أبي بكر:

ليس لحي فاعلمننه بقا	وككل دنيا أمرها للفنا
والمك في الأقوام مستودع	عارية فالشمرط فيه الأدا
والمسرر يسعى وله راصد	تندبه العين ونار الصدا
إن أبا بكر هو الغيث إن	لم تزرع الجوزاء بقلما بما
تالله لا يدرك أيامه	ذو منزر ناش ولا ذو ردا
من يسرع كي يدرك أيامه	جهدا شذ بأرض فضا ⁽²⁵⁾

وهذا ابن ندبة السلمي جعل من أبي بكر مجالا أدبيا ليحول معاني أخلاقه إلى جنس أدبي رفيع وهو الشعر الإسلامي الذي ينبض بالمدح، ومن ما هو معلوم أن المدح يتناول دائما مكارم الأخلاق من جميل الخصال، وهو ما يسعي الأدب الإسلامي لبلورته وجعله تاجا أدبيا مرصعا بألوان الأدب وفنونه الجميلة. ومن هنا نعلم أن الأدب الإسلامي لا يمكن أن يعبر عن روح الإسلام إذا كان أدبا نظريا محضا وبمناى عن التطبيق العملي أو منفصلا عنه، وذلك في حق أفراد المجتمع الإسلامي عامة وعلي حكامه خاصة فيما يجب عليهم من ترجمة حقيقية للأدب النظري إلي واقع عملي ملموس برعاية ورغابة تحافظ علي الشكل الأدبي والمضمون الأخلاقي، وبذا يُعلم بأن التطبيق العملي للنصوص النظرية مركب مزج من عقيدة وإيمان وقول وعمل، وإن الكاتب الموهوب الذي جمع بين هذه الصفات يستطيع أن يستشف المعاني من وراء هذه المفاهيم ليرسلها إلي القلوب إنشاء أدبيا مؤثرا يحافظ علي ديمومة التلازم بين تلك القيم وبين روح الإبداع الفني الجميل في طابع أدبي فريد.

ولقد تواتت معاني الشعر في التزام قادة الأدب بالالتزام ولله در المتنبي عندما قال:

فأنت حسام الملك والله ضارب	وأنت لسوء الدين والله عاقد
له من كريم الطبع في الحرب منتضد	ومن عادة الإحسان والصفح عامد
ولما رأيت الناس دون محله	تيقنت أن الدهر للناس ناقد
بذا قضت الأيام ما بين أهلها	مصائب قوم عند قوم فوائد
وكل يرى طرق الشجاعة والندی	ولكن طبع النفس للنفس قائد
أحبك يا شمس الزمان وبدره	وإن لأمي فيك السهى والفرائد
وذاك لأن الفضل عندك باهر	وليس لأن العيش عندك بارد ⁽²⁶⁾

فهذا هو أمير الشعراء في زمانه (المتنبي) يعيد رسم لوحة استعار بياناتها من ماض أمة الإسلام في الحقبة الأولى (صدر الإسلام) وإن كانت قصيدته في المدح في العصر العباسي، وإن الممدوح يقاس دائماً إلي ما هو أكبر منه، انظر كيف كانت تلك الحقبة الثمينة نورا يستمد منه الشعراء معالم الطريق، فكانت مصدراً للإلهام في إرساء معالم الأدب الإسلامي بأجناسه المتعددة.

لقد التزم أبو بكر الصديق بتوجيه جيش أسامة إلى الشام فخرج أمير المؤمنين حافياً وقائد الجيش أسامة راكباً فكان ذلك تعبيرا صادقا لا يخل بالحزم ولا يقلل من الشأن على الرغم من فارق السن بين أسامة ستة عشر عاماً، وأبي بكر ستون سنة، وفي هذا قال الشاعر:

تواضع تكن كالبدر تبصر وجهه	على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه	إلى صفحات الجو وهو وضيع ⁽²⁷⁾

انظر إلى خلق التواضع فكم جلب الحكمة التي تخاطب العقل الراجح وتستهوى اللب الناجح، فهذه معاني الأشعار تلتف حول الإلتزام ملهمة طباع الأدب الإسلامي، فكم لأمس قول المتنبي تلك المعاني السامية:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم	وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها	وتصغر في عين العظيم العظائم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا	وموج المنايا حوله متلاطم
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه	وفي أذن الجوزاء منهم زمازم
تجمع فيها كل لسن وأمة	ما تفهم الحداث إلا التراجم
لله وقت ذوب الغش ناره	فلم يبق إلا صارم أو ضارم
على قدر أهل العزم وقفت وما في الموت شك لواق	كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلهمي هزيمة	ووجهك وضاح وثغرك باسم
ومن طلب الفتوح الجليل فإمما	مفاتهحه البيض الخفاف الصوارم
ولست مليكاً هازماً لنظيره	ولكنك التوحيد للشرك هازم
تشرف عدنان به لا ربيعة	وتفتخر الدنيا به لا العواصم
ألا أيها السيف الذي لست مغمداً	ولا فيك مرتاب ولا منك عاصم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلأ	وراجيك والإسلام أنك سالم ⁽²⁸⁾

انظر إلي هذه اللوحة العظيمة من لوحات الشرف التي جاءت نظماً قلماً تجود الآداب الإسلامية بمثلها، وذلك عندما حوّل المتنبي صفات أدبية محفوظة لأبي بكر كأول خليفة، فجعلها مدحاً لسيف الدولة في العصر العباسي، وهكذا المدح يلحق الصغير بالكبير في ثوب أدبي بليغ، ولقد كان لكبار الشعراء في صدر الإسلام دور بارز في أرساء معاني الإلتزام، انظر كيف صور الشاعر المخضرم الصحابي الجليل لبيد بن ربيعة العامري ذلك الزهد في كل ما هو فان، فأنشده مرثيته في أخيه أربد فقال:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع	وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
وقد كنت في أكناف دار مضنة	ففارقني جار بأربد نافع
فلا جزع إن فرق الدهر بيننا	فكل فتى يوماً به الدهر فاجع
وما الناس إلا كالديار وأهلها	بها يوم حلوها وعذواً بلاءً قع
وما المرمء إلا كالشهاب وضوئه	يحور رماً بعد إذ هو ساطع
وما البر إلا مضرات من الثقى	وما المال إلا مغممات ودائع
وما المال والأهلون إلا ودائع	ولا بد يوماً أن تردّ الودائع
فأصبحت مثل السيف أخلق جفنه	تقادم عهد القين والنصل قاطع
فلا تبعدن إن المنيّة موعده	علينا فدان للطلوع وطالع
أتجزع مما أحدث الدهر للفتى	وأى كريم لم تصبه القوارع
لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى	ولا زاجرات الطير ما لله صنيع! ⁽²⁹⁾

لا شك أن القصيدة جاءت مشبعة بالمعاني الإسلامية ومعلوم أن لبيد بن ربيعة كان من كبار شعراء المعلقات في الجاهلية، فأستبدل المضمون بأدب إسلامي وأبقى علي شكل الشعر كما كان في الجاهلية، وفتناسب الشكل والمضمون تناسباً عكسياً، وأشد أبو بكر الصديق شعراً للبيد في رثاء أخيه أربد، في قوله:

لعمري لئن كان المخبر صادقاً	لقد رزئت في حادث الدهر جعفر
أخ لي، أما كل شيء سألته	فيعطي، وأما كل ذنب فيغفر

فقال أبو بكر رضوان الله عليه: ذلك رسول الله، لا أربد بن قيس، لما ذكر البيت الثاني أما كل شيء سألته فيعطي، وأما كل ذنب فيغفر أي يسامح، فكان أبو بكر بذلك أدبياً وناقداً في الأدب الإسلامي، وقد رثى لبيد (أربد) بعد ذلك بقصيدته التي ذكرناها.⁽³⁰⁾

لقد جمع أبو بكر بين الأدب والبلاغة والنقد في وقت لم يكن للتصنيفات الأدبية ذكر، وهذه الثلاثة لا ينفك بعضها عن بعض فالبلاغة هي جزء أصيل من الأدب كيف لا وإن علم المعاني المعروف بعلم الأسلوب يقف سبباً قوياً لمعاني الأدب نقده وبلاغته معبراً عن الحقيقة والواقع وفي مضماره يصول ويجول الأدباء، وعلم المعاني هو ثالث أركان البلاغة إلي جانب البيان والبديع، وفي علم البيان نجد الحقيقة والمجاز ولولا الحقيقة لما كان المجاز، والكناية إحدى مباحث البيان نجدها تحتل في مراميها ومقاصدها الحقيقة والمجاز، وأما البديع فهو من علم الأسلوب الذي

هو علم المعاني، فكل هذا يدل علي أن الأدب الإسلامي وعاء جامع يشمل النقد والبلاغة والأدب في تصنيفات اليوم، بمجالاتها وفروعها، وهذا يؤكد بكل جلاء عمق التطبيق الأدبي للطباع والأخلاق فهذا هو الأدب في الإسلام تنبثق ألوانه وتتسع معانيه وتتعدد فروعه وتنداح دائرته برؤى ثابتة ومفاهيم راسخة قوامها الإلتزام بالشرع الإسلامي.

قَالَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَمَكَثْنَا ثَلَاثَ لَيَالٍ وَمَا نَدَرِي أَيْنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَ الْجِنِّ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، يَتَعَنَّى بِأَيِّبَاتٍ مِنْ شَعْرِ غَنَاءِ الْعَرَبِ، وَإِنَّ النَّاسَ لَيَتَّبِعُونَهُ يَسْمَعُونَ صَوْتَهُ وَمَا يَرَوْنَهُ حَتَّى خَرَجَ مِنْ أَعْلَى مَكَّةَ وَهُوَ يَقُولُ:

جَزَى اللَّهُ رَبَّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ	رَفِيقَيْنِ حَلَا حَيْمَتِي أَمْ مَعْبُدِ
هُمَا نَزَلَا بِالْبِرِّ ثُمَّ تَرَحَّلَا	فَأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدٍ
لِيَهِنَ بَنِي كَعْبٍ مَقَامَ فَتَاتِهِمْ	وَمَثَعَدَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرُودِ
فَيَا لِقُصِي مَا زَوَى اللَّهُ عَنْكُمْ	مِنْ فِعَالٍ لَا يُجَازِي وَسُودِ
سَلُوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا	فَإِنَّكُمْ إِنْ تَسَأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدُ
دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ	لَهُ بِصَرِيحِ ضَّةِ الشَّاةِ مُزِيدِ
فَعَادَرَهَا رَهْنًا لَدَيْهَا بِحَالِ	يُرَدِّدُهَا فِي مَصَدْرٍ ثُمَّ مُورِدِ ⁽³¹⁾

فهذا الشعر المحكم الذي أوردناه من قول رجل من الجن، وما اعترفت الجن بهذا الفضل لشخصين (نبينا الكريم والصديق) هما من سادات العرب وأشرفها، إلا لأن الجن قد ألفت خصالهما وأخلاقهما، فلا فرق بين طباعهما في الجاهلية والإسلام إلا بما أضافه الدين الإسلامي الجديد إليهما من آداب وأخلاق حميدة، فكان ذلك نور علي نور ويهدي الله لنوره من يشاء، لقد وقع قول الجنّي من الشعر موقعا عميقا علي مسامع العرب، لأنه أسهم في حل مشكلة أربكت العرب وعجزت أن تتوصل لحلها عبر جميع الطرق والوسائل المتاحة بما في ذلك أدب الكهانة الذي كان واحدا من مجالات الأدب في الجاهلية وكانت تتعامل به الجن، ولكن الجن من خلق الله فكسر بهم عادة العرب المظلمة، لينفتح باب جديد من أبواب الأدب الإسلامي،...انظر كيف كان الإسلام ملهما للأدب المنظوم عندما أصبحت الجن مصدرا من مصادر الأدب والأخلاق بعد التكليف الشرعي الذي جاء به الدين الحنيف في قوله تعالي (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)، فالجن مكلفون بما كلف الله به الإنس، وأن نبينا محمد أرسله الله تعالي للثقلين الإنس والجن.

لقد كان نبينا محمد محل إعزاز وإكرام بين قومه، فهذا عمه أبو طالب ينظم فيه أجمل أشعار العرب علي الرغم من أنه لم يكن علي دينه، ولكنه تباين الأخلاق الذي أملاه الإلتزام الأدبي، فأنشد أبو طالب قائلا:

ثَمَّالِ الْيَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ
 قَهُمْ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَقَوَاضِلِ
 تَقَصَّرُ عَنْهَا سَوْرَةُ الْمُتَطَوِّلِ
 يُوَالِي إِلاَهُأَ لَيْسَ عَنْهُ بِغَافِلِ
 وَمَا نَصَرَ عَـ حَوْلَهُ وَنُقَاتِلِ
 وَمَا نَقَاتِلُ دُونَهُ وَنَنَاضِلِ
 وَنَذَهَلَ عَنِ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَالِ
 عَلَيْنَا بِسَوْءٍ أَوْ مَلُوحٍ بِبَاطِلِ
 يَحُوطُ الذَّمَّارَ غَيْرَ ذَرِبِ مُوَاطِلِ
 لِدِينِنَا وَلَا يُعْنِي بِقَوْلِ الْبَاطِلِ
 لَتَلْتَبَسْنَ أَسْيَافُنَا بِالْأَمَاتِلِ⁽³²⁾

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْعَمَامُ بِوَجْهِهِ
 يَلُودُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمِ
 وَأَصْبَحَ فِينَا أَحْمَدُ فِي أَرْوَمَةِ
 حَلِيمٍ رَشِيدٍ عَادِلٍ غَيْرُ طَائِشِ
 كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللَّهِ يُبْزَى مُحَمَّدُ
 كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللَّهِ نَتْرَكَ أَحْمَدُ
 وَنُسَلِمُهُ حَتَّى نُصْرَعَ حَوْلَهُ
 أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْ كُلِّ طَاعِنِ
 وَمَا تَرَكُ قَوْمٍ لَا أَبَالِكُ سَيِّدًا
 وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبُ
 وَإِنَّا لَعَمْرُ اللَّهِ إِنْ جَدَّ جَدُّنَا

فالذي قاله أبو طالب في رسول الله من المدح هو الطبع الخلقى والأدب الرباني الذي جبل الله عليه نبيه محمداً فالطباع الحسنة لا تتحول ولا تتبدل بل تزداد وضوحاً وجلاءً مع مر الأيام، فهذا أبو طالب يسوم سادات العرب من آل هاشم سدة بيت الله الحرام وأصحاب الشرف والرياسة يسومهم أشد الهجاء فيصفهم صادقاً بالكذب فداء لرسول الله، أبناهم والحلائل بقوله:

فَعَبْدُ مَنْافٍ سُرَّهَا وَصَمِيمُهَا
 فَفِي هَاشِمٍ أَشْرَافُهَا وَقَدِيمُهَا
 هُوَ الْمَصْطَفَى مِنْ سُرَّهَا وَكَرِيمُهَا
 عَلَيْنَا وَمَ تَظْهَرُ وَطَاشَتْ حُلُومُهَا
 إِذَا مَا تَنَوَّأ صَغَرَ الْخُدُودِ نَقِيمُهَا⁽³³⁾

إِذَا اجْتَمَعَتْ يَوْمًا قَرِيشٌ مَلْفَخِرِ
 وَإِنْ حَصَلَتْ أَشْرَافُ عِبِدِ مَنْافِهَا
 وَإِنْ فَخَرَتْ يَوْمًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا
 تَدَاعَتْ قَرِيشٌ عَثَّهَا وَسَمِيئُهَا
 وَكُنَّا قَدِيمًا لَا نَقْرُ ظُلَامَةً

هذه لوحة إقرار بالشرف وقد أظهرت نبينا محمد صلي الله عليه وسلم ممدوحاً من صفوة قريش أجمعها فما زالت نقشا في صفحات الزمان تزداد جلاءً ووضوحاً بهر الليالي والأيام، تضئ طريق الأبناء ممن أراد أن يقرأ تاريخ الأخلاق من أمجاد العرب وسادات الكلم وأرباب الفصاحة والبيان والبلاغة. ونلاحظ هنا أن الطبع الحميد لنبينا جرى على لسان رجل في الجاهلية غير مسلم، ومع ذلك أضيف لطباع المسلمين لأن شعر أبي طالب كان لوحة أدبية مقبولة في الجاهلية والإسلام، مثلما كانت أشعار الجن أنفة الذكر لوحة مقبولة في الجاهلية والإسلام كذلك، ونخلص من هنا إلى أن تأطير الطباع على الأدب الإسلامي جاء مثبتاً من آداب لبيئات متعددة، جمع بينها معنى الأخلاق الرشيدة الكريمة لتمثل جوهرها لجميع فروع وأشكال الأدب الإسلامي، فكان الطبع السليم قاسماً مشتركاً لأدب الالتزام في الإسلام.

أَمَّا حَسَّانَ بِنْتُ ثَابِتٍ لَمَّا بَلَغَهُ شِعْرُ الْجِنِّيِّ وَمَا هَتَفَ بِهِ فِي مَكَّةَ، لَمْ يَتَمَالَكْ نَفْسَهُ حَتَّى
 فَجَرَ يَنْبُوعَ الشَّعْرِ بَيْنَ الْأَنْسِ مَجِيئاً الْجِنِّ، فَجَرِي شَعْرَهُ نَهْرًا مِنَ النِّظْمِ يَتَدَفَّقُ بِالْمَعَانِي الثَّرَى إِلَى
 يَوْمِنَا هَذَا عِنْدَمَا مَدَحَ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ وَصَاحِبَهُ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ:

وَقَدَّ سُرَّ مَنْ يَسْرِي إِلَيْهِمْ وَيَعْتَدِي
وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدِّدٍ
وَأَرَشَدَهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الْحَقَّ يَرُشِدُ
عَمَّا يَتَّبِعُهُمْ هَادٍ بِهَا كُلُّ مُهْتَدٍ
رِكَابٌ هُوَ هُدَى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعِدِ
يَتَلَوُ كِتَابَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ
تَصْدِيقُهُ فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي صُحَى الْعَدِ
بِصُحْبَتِهِ مَنْ يُسْعِدُ اللَّهَ يَسْعَدُ⁽³⁴⁾

قَدْ خَابَ قَوْمٌ عَنْهُمْ نَبِيَّهُمْ
تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عَقُولُهُمْ
هَدَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ رَبَّهُمْ
وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالٌ قَوْمٌ تَسْفَهُوا
لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ إِلَى أَهْلِ يَثْرِبِ
نَبِيِّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ
وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائِبِ
لِيَهْنِ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةَ جَدِّهِ

كل هذا الشعر أدب إسلامي يمثل لوحة شرف نادرة لا يوجد مثلها الزمان، تضافرت فيها أخلاق رجلين من الإنس والجن، أما الذي من الإنس فهو الصحابي الجليل حسان بن ثابت رضي الله عنه، فعندما سمع إنشاد الجنى وهو يثني علي رسول الله وصاحبه أبي بكر بالمدح، فطربت لذلك نفسه وهاجت قريحة الشعر في قلبه، وقد رضي بسلامة رسول الله، فرد علي صوت الشعر جميلا بجميل هتافا بهتافا قافية بقافية سعدا بسعد، فجاءت القصيدة مزجا واحدا بشعور واحد وأدب واحد وأخلاق واحدة وطبع واحد، دفاعا عن رسالة واحدة وهي رسالة الإسلام، وفي نفح الطيب درر من الشعر مما قيل في أبي بكر مما قاله فيه رسول الله صلي الله عليه وسلم، وذلك ما ترجمه وسطره ابن جابر عندما قال:

عليّ أبو بكر وأوفى بموعده
عصيتم ووافاني موافاة مسعده
خليلا تولى خلتي وتودودي
الاسلام مهما تنقص الناس تزد
وصار إلى دار النعيم المخلد
بإجماعهم لا بالحسام المهند
ومن يتبع الإنصف والحق يحمد
مشبه ولا أحصيت أوصافه بتعدد⁽³⁵⁾

وقال رسول الله إن أمتكم
فصدق إذ كذبتم وأطاع إذ
ولو أنني من أمتي كنت أخذا
لكان أبو بكر ولكن أخوة في
فلما أراد الله قبض نبيه
تقدم في نيل الخافة بعده
فآب بحمد منهم غير قاصر
وما أشبه الصديق في الفضل

إن هذه اللوحة الشريفة الناطقة بالفخر التي سطرها الشاعر بن جابر لم تكن إلا نثرا من أقوال رسول الله في صاحبه أبي بكر، ولكنه كان نثرا ملهما للفن الأدبي النبيل ومنبعا تصدر منه الأخلاق، فلم يتردد الشاعر في تحويل المعاني من مجال إلي مجال آخر، ترتسم فيه موهبة الفنان العربي الأصيل الملتزم بتعاليم النبي الكريم، فها هي مواقف السيرة العطرة تتداعى عبر خواطر التاريخ لتصطف المعاني فتحفها المشاعر لتولد نظما من الشعر العتيق، ليكون توئما لمنثور تلك المعاني، ليفرض نفسه علي مر الزمان علي كل مجالات وأجناس وأنواع الأدب الإسلامي، ليصبح معينا لا ينضب ومقتبسا لا يخبو، فها هي أبحر الشعر وقوالبه الأدبية تحتضن النثر لتأخذ منه المعني للمنظوم وتترك شكله للمنثور. ولذا نجد أن لأدب الإسلامي اتفق مع الأدب الجاهلي في

عدد من الموضوعات مثل: الرثاء والهجاء والمدح والفخر، والحكمة والورع، والحماسة، ولقد حُبب الإسلام جمال الطبيعة إلى النفوس بذكر مظاهرها في القرآن: من السحب والرياح والأمطار، والليل والنهار وخلق السموات والأرض، وهناك موضوعات تلاشت مع ظهور الإسلام ولا تعد من الأدب الإسلامي مثل: ذكر الخمر والاعتزاز بشربها، والتشبيب من ذكر النساء والتصايب لهن، وتذكر الهوى المحرّم من ديار المحبوبة وأسر النفوس لذكرياتها والمخاطرة بالروح للقيها، ولذلك نجد أوجه التشابه قائمة بين أدبي الجاهلية والإسلام في الشكل دون المضمون.

الخاتمة:

إن الحديث عن طبع الالتزام والمثالية والواقعية في الجاهلية والإسلام أدب متجدد مع تطور البشرية والعلوم والثقافة الإنسانية، وعلم متمدد في آفاق المعمورة، يدور مع عجلة الحياة اليومية ويتناسق مع إيقاع الحركة الاجتماعية، مما يثبت أن هذا النوع من الأدب هو المحرك الأساسي للإدراك الحسي والمعنوي داخل إطار النفس البشرية بالتأصيل والاعتقاد، وخارج محيط المجتمعات المادية بالتعليل والإثبات، وهذا الفهم يقودنا للبحث عن قيم روحية تستوعب مجمل الآداب والأخلاق، وتستقطب سائر الحضارات في إطار بيئة واحدة تتجسد فيها معالم الإنسانية وتتجلي فيها تعاليم السماء برسم السنة النبوية

ولما كان هذا هو المفهوم والمغزى من دراستنا قادننا ذلك للوقوف علي طبع الالتزام في الجاهلية وما اعتمده العرب في هذا الجانب من رصين الشعر العربي الأصيل الذي التزمت فيه بأبهر محددة وتفعيلات مقننة وموضوعات متفق عليها، فأرنا كيف كان الالتزام وأدبه مع الأخلاق والقيم الاجتماعية في الجاهلية مع اختلافها سلبا وإيجابا، ثم رأينا كيف أن الإسلام اتفق مع الشكل الفني للقصيدة العربية دون المضمون، فأفرغت القصيدة الجاهلية من محتواها المعنوي وأعيد ملؤها بالمعاني الإسلامية، مما جعلنا نتناول في بحثنا نماذج تتجسد فيها تلك المثل والقيم، فجاء هذا البحث المتواضع الذي وضعنا أمام أول خلافة بشرية بعد رسولنا الكريم لنقف عند أول تجربة في تأصيل طبع الالتزام في أدب الإسلام مراعين في ذلك جوانب المثالية والواقعية والالتزام، وما يتفرع منها من مجالات الأدب الإسلامي وأقسامه المختلفة وأجناسه المتعددة في زمن لم يقف فيه التصنيف علي قدميه، بل كان موجودا بصفة تطبيقية، وكانت حقبة صدر الإسلام مسرحا لوقائعها وأتمودجا لطبائعها، فسجل التاريخ نبضات سيرها في وسط أمواج عاتية من التيارات العصبية من أذنان العصر الجاهلي، وذلك ما بين تحديات القرآن الكريم، ومعجزات السنة النبوية وبين رواسب آداب وأخلاق من بقايا الجاهلية، فجاءت تلك الأشات من فنون الأدب في هذا البحث المتواضع.

النتائج:

- يمثل الطبع القيم والمثل الروحية وهي قيم أدبية صالحة لكل زمان ومكان.
- أعطت الخلافة الأولى القراءة الصحيحة لطابع الأدب الإسلامي، في جوانب الالتزام والمثالية والواقعية.

- لقد باءت آداب وأذنان العصر الجاهلي بالفشل أمام تحديات القرآن الكريم والسنة النبوية.
- إن تيار الأدب الإسلامي أقوى من مظاهر الجاهلية، والتنقيب في القيم الروحية من مطالب الإنسانية.
- الخلافة الأولى هي النافذة التي كسرت حاجز الانسداد الأخلاقي، من واقع الحوار الأدبي من منابعه الصافية.
- التوجهات القرآنية والتعاليم النبوية، أكثر القيم ثباتاً أمام التيارات الحضارية والمتغيرات الثقافية.
- إن الأدب الإسلامي يمتلك المقدرة البرهانية على التفوق النوعي بين زحام المثل غير الشرعية.
- كانت مجالات الأدب وأجناسه وأقسامه وفنونه المتعددة ماثلة بصورة تطبيقية في الجاهلية.
- كان مفهوم الالتزام الأدبي متأصلاً في الجاهلية، متمثلاً في موضوعات الشعر وابعره بتفعيلاتها المعهودة

التوصيات:

- الالتزام بالقرآن الكريم والسنة النبوية مصدراً للأدب.
- الالتزام بالسيرة النبوية مرجعاً للالتزام والمثالية والواقعية.
- الوقوف على المثاليات الأدبية أولاً قبل النظر في الالتزام والواقعية.
- معرفة المثاليات والقيم الروحية والأدبية لدين الإسلام، للتغلب على المثاليات غير الإسلامية.
- التأكيد على أن الحضارات والثقافات العالمية تستمد جذورها الأدبية وقيمها الأخلاقية والروحية من الإسلام.
- الوقوف على تراث العرب الجاهلي من الشعر والنثر الذي كانت تعده ديواناً لمثلها، ومفسراً لطابع أخلاقها ومرجعاً لواقعية قيمها، والتزاماً بأدابها وأخلاقها.

الهوامش:

- (1) محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ج8/ص232.
 - (2) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، أساس البلاغة، دار الفكر، 1399هـ، 1979م، ج1/ص383
 - (3) لسان العرب، مرجع سابق، ج12/ص541.
 - (4) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين، ج33/ص418
 - (5) محمد بن سعد الدبل، من بدائع الأدب الإسلامي، إصدار نادي المدينة المنورة، رقم الكتاب (67)، دار البلاد للطباعة والنشر، جدة، من مقدمة الكتاب.
 - (6) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، دار الأرقم، بيروت، تحقيق: عمر فاروق الطباع، ج1/ص117
 - (7) المرجع السابق، ج1/ص118
 - (8) المرجع السابق، ج1/ص132-135
 - (9) المرجع السابق، ج1/ص146
 - (10) المرجع السابق، ص: 118-120
 - (11) المرجع السابق
 - (12) شوقي ضيف، تاريخ الأدب الجاهلي، دار المعارف القاهرة، الطبعة 28، 2008م، ص: 301-303
 - (13) جمهرة أشعار العرب، مرجع سابق، ص: 188
 - (14) أحمد بن تيمية، شرح العمدة في الفقه، مكتبة العبيكان، الرياض، 1413هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. سعود صالح العطيشان، ج4/ص61
 - (15) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، منهاج السنة النبوية، مؤسسة قرطبة، 1406، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ج5/ص453
 - (16) فخر الدين محمد بن عمر التميمي، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، 1421هـ
- 2000م، الطبعة الأولى، ج20/ص89

- (17) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، القاهرة، ج2/ص211
- (18) أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، تحقيق: علي مهنا وسمير جابر، ج12/ص361
- (19) سبط ابن التعاويذي، الديوان ج1/ص348
- (20) أحمد بن تيمية، كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (كتاب التوحيد) ج7/ص530
- (21) إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، المعجم الوسيط، دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية ج2، ص932.
- (22) شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج21، ص83.
- (23) محمد بن عبد الله الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 1421هـ، 2000م، الطبعة: الأولى، ج1/ص14.
- (24) محمد بن قدامة المقدسي، العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام بن تيمية، دار الكاتب العربي، بيروت، تحقيق محمد حامد الفقي، ج1/ص499.
- (25) السيوطي، تاريخ الخلفاء، (مرجع سابق) ج1، ص86
- (26) المتنبي، الديوان ج3، ص341.
- (27) محمد الأمين بن محمد الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1415هـ، 1995م، ج2/ص11
- (28) كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، بغية الطلب في تاريخ حلب، دار الفكر، تحقيق د. سهيل زكار، ج1، ص243.
- (29) أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، تحقيق علي مهنا وسمير جابر، ج17، ص67.
- (30) المرجع السابق، نفس الصفحة
- (31) عز الدين بن الأثير الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1417هـ، 1996م، الطبعة الأولى، ج1/ص553.

- (32) عبد الملك بن حسين المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419 هـ 1998 م، ج1، ص389.
- (33) أحمد بن عبد السلام الجراوي، الحماسة المغربية مختصر كتاب صفوة الأدب، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1991 م، الطبعة الأولى ج1، ص102.
- (34) حسان بن ثابت، الديوان ج1، ص51
- (35) أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر، بيروت، 1388 هـ تحقيق د. إحسان عباس، ج7/ص360